وابتداء الكلام بنداء الذين آمنوا للاهتمام به واستجلاب الإصغاء إليه . ونداؤهم بالذين آمنوا لما فيه من الإيماء إلى أن الإيمان يقتضي ما سيؤمرون به . ففيه تعريض بأن الذين يصدر منهم ما يؤذي النبي A قصدا ليسوا من المؤمنين في باطن الأمر ولكنهم منافقون وتقديم الأمر بالتقوى مشعر بأن ما سيؤمرون به من سديد القول هو من شعب التقوى كما هو من شعب الإيمان .

والقول : الكلام الذي يصدر من فم الإنسان يعبر عما في نفسه .

والسديد : الذي يوافق السداد . والسداد : الصواب والحق ومنه تسديد السهم نحو الرمية أي عدم العدول به عن سمتها بحيث إذا اندفع أصابها فشمل القول السديد الأقوال الواجبة والأقوال الصالحة النافعة مثل ابتداء السلام وقول المؤمن للمؤمن الذي بحبه : إني أحبك .

والقول يكون بابا عظيما من أبواب الخير ويكون كذلك من أبواب الشر . وفي الحديث " وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم " وفي الحديث الآخر : " رحم ا امرأ قال خيرا فغنم أو سكت فسلم " وفي الحديث الآخر : " من كان يؤمن با واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت " .

ويشمل القول السديد ما هو تعبير عن إرشاد من أقوال الأنبياء والعلماء والحكماء وما هو تبليغ لإرشاد غيره من مأثور أقوال الأنبياء والعلماء . فقراءة القرآن على الناس من القول السديد ورواية حديث الرسول A من القول السديد . وفي الحديث : " نضر ا أمرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها " وكذلك نشر أقوال الصحابة والحكماء وأئمة الفقه . ومن القول السديد تمجيد ا والثناء عليه مثل التسبيح . ومن القول السديد الأذان والإقامة قال تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب) في سورة فاطر . فبالقول السديد تشيع الفضائل والحقائق بين الناس فيرغبون في التخلق بها وبالقول السيئ تشيع الضلالات والتمويهات فيغتر الناس بها ويحسبون أنهم يحسنون صنعا . والقول السديد يشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ولما في التقوى والقول السديد من وسائل الصلاح جعل للآتي بهما جزاء بإصلاح الأعمال ومغفرة الذنوب . وهو نشر على عكس اللف فإصلاح الأعمال جزاء على القول السديد لأن أكثر ما يفيده القول السديد إرشاد الناس إلى الصلاح أو اقتداء الناس بصاحب القول السديد .

وغفران الذنوب جزاء على التقوى لأن عمود التقوى اجتناب الكبائر وقد غفر ا للناس الصغائر باجتناب الكبائر وغفر لهم الكبائر بالتوبة والتحول عن المعاصي بعد الهم بها ضرب من مغفرتها .

ثم إن ضميري جمع المخاطب لما كانا عائدين على الذين آمنوا كانا عامين لكل المؤمنين في عموم الأزمان سواء كانت الأعمال أعمال القائلين قولا سديدا أو أعمال غيرهم من المؤمنين الذين يسمعون أقوالهم فإنهم لا يخلون من فريق يتأثر بذلك القول فيعملون بما يقتضيه على تفاوت بين العاملين وبحسب ذلك التفاوت يتفاوت صلاح أعمال القائلين قولا سديدا والعاملين به من سامعيه وكذلك أعمال الذي قال القول السديد في وقت سماعه قول غيره . وفي الحديث : " فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه " فظهر أن إصلاح الأعمال متفاوت وكيفما كان فإن صلاح المعمول من آثار سداد القول وكذلك التقوى تكون سببا لمغفرة ذنوب المتقي ومغفرة ذنوب غيره لأن من التقوى الانكفاف عن مشاركة أهل المعاصي في معاصيهم فيحصل بذلك انكفاف كثير منهم عن معاصيهم تأسيا أو حياء فتتعطل بعض المعاصي وذلك ضرب من الغفران فإن اقتدى فاهتدى فالأمر أجدر .

وذكر (لكم) مع فعلي (يصلح) و (يغفر) للدلالة على العناية بالمتقين أصحاب القول السديد كما في قوله تعالى (ألم نشرح لك صدرك) .

وجملة (ومن يطع ا ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) عطف على جملة (يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم) أي وتفوزوا فوزا عظيما إذا أطعتم ا بامتثال أمره . وإنما صيغت الجملة في صيغة الشرط وجوابه لإفادة العموم في المطيعين وأنواع الطاعات فصارت الجملة بهذين العمومين في قوة التذييل . وهذا نسج من نظم الكلام وهو إفادة غرضين بجملة واحدة .

(إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا [72]) E A